٦٤ ابن هشام الأنصارى فى النحو أعلم من سيبويه

ابن هشام الأنصارى واحد من الصالحين القلائل الذين يجمعون بين التفقه فى الدين والتفقه فى اللغة. فإلى جانب اهتمامه البارز بالقضايا الفقهية على المذهبين الشافعى والحنبلى، وكتابته عدداً من المؤلفات فى شرح هذين المذهبين، فإنه قد عُنى عناية فائقة بعلم النحو، الأمرالذى جعل العلامة عبد الرحمن بن خلدون يذكره فى مقدمته الشهيرة على أنه من المراجع الموثوق بها فى هذا العلم على وجه التحديد، ومفضلا إيَّاه على الكثيرين من علماء النحو، وفى مقدمتهم سيبويه. وذلك للدور الجليل الذى قام به فى عملية تيسير النحو بشكل يضمن سلامة اللغة العربية، وفى الوقت نفسه يؤكد ثراءها وجلالها، وسعة استخداماتها.

وابن هشام الأنصارى من مواليد القاهرة، حيث ولد سنة ثمان وسبعمائة. ونشأ بها، وتلقى دراسته الأولى فى دور العلم المتاحة وقتئذ، فالتحق بمكاتب تحفيظ القرآن الملحقة بالمدارس، والخانقاوات المنتشرة فى ذلك الوقت. حيث تعلم شيئاً من العلوم الدينية إلى جانب إتمامه حفظ القرآن الكريم وهو لم يزل صبياً صغيراً، بل وأتقن إلى حد كبير قواعد اللغة العربية إتقاناً شد انتباه أساتذته، خاصة وهو فى هذه السن المبكرة. حتى إذا أتم المرحلة التمهيدية فى التعليم التحق بالمدارس التى تطور تعليمه فيها، فدرس أصول الدين، كالفقه والحديث والتفسير، وكذا علوم اللغة كالنحو والصرف والبيان فضلاً عن دراساته العقلية للفلسفة والمنطق وعلم الكلام.

وكما تسجل الدكتورة سعاد ماهر فى تأريخها لمسجد هذا الرجل الصالح، بالإشارة إلى تاريخ حياة هذا العالم الفقيه بأن حياته العلمية كانت حافلة بألوان من

النشاط الفكرى، إذ لم يقتصر جهده على التدريس بمدارس مصر فحسب، بل تجاوزها إلى غيرها من مراكز العلم والثقافة فى البلاد العربية. فرحل إلى مكة، وجاور بها، وقرأ ودرس كتاب سيبويه عدة مرات، وأطلع على غيره من كتب علماء اللغة، إلى جانب لقاءاته بعدد من علماء الأمة الإسلامية وقتئذ.

لقد أقام ابن هشام فى مكة لغرض العلم والدين سنة كاملة، فيها قام بتأليف كتاب فى الإعراب، ورجع إلى مصر ليبقى بها سنتين أو ثلاثاً، يعود بعدها مجاوراً فى مكة، حيث اطلع على كل ما كُتب فى علوم اللغة من نحو وصرف وبيان، وقد أعانته هذ الاطلاعات الواسعة على ما أنتجه العقل فى كل هذه المناحى اللغوية.. على تأليف كتابه «المغنى».

وطبيعى وقد ولد ونشأ وتعلم ابن هشام حياته فى مصر أن يتزوج منها، وينجب عدداً من الأبناء، يشتهر منهم ومن أحفاده العلماء والفقهاء والأدباء، وأن يتتلمذ على يديه وعلى أيدى أبنائه كثير من العلماء والفقهاء والأدباء، حتى أصبح مألوفاً أن يُقال عنه وعن ذريته فى الكتابات القديمة: «هكذا ظلت غَرْسَةُ العلم التى استنبتها ابن هشام بكده وكدحه فى أسرته.. يتوالى على العناية بها من بعده أبناؤه وأحفاده إلى زمن غير قصير، ويستظل بها طلاب العلم والمعرفة فى أكثر من جيل، وأكثر من مكان».

والحق أن ابن هشام قد أخذ عن شيوخه وأساتذته سواء فى مصر أو فى الحجاز ـ الشئ الكثير، فقد انتفع بما لديهم من علوم العصر وفنونه، وكان ما انتفع به خيرَ عدة، وأصلح ذخيرة.. انتفع بها فى حياته العلمية والفقهية، فأثبت تفوقه وتقدمه عن جداره، حيث بز علماء وفقهاء عصره فى القاهرة وفى مكة، سواء فى الفقه اللغوى، أو الدينى، أو التأليف، أو التدريس.

ففى الفقه يحدثنا «ابن إياس» عن جهود ابن هشام، فيذكر أنه كان شافعى المذهب، حيث نشأ وتربى على هذا المذهب، ودرس الفقه الشافعى عندما كان يقرأ «الحاوى الصغير» للإمام الشافعى، كذلك كان يدرس التفسير على المذهب الشافعى، وله فى ذلك كتابات وتلاميذ.

غير أن ابن هشام لم يقتصر فى دراسته على المذهب الشافعى، فقد انتقل إلى المذهب الحنبلى قبل وفاته بسنوات قليلة، وله فى ذلك كتابات ودروس كثيرة، وربما لو طال به الزمن لكانت تتساوى مع كتاباته ودروسه فى الفقة الشافعى، الذى أنفق فى قراءته وتأمله وتفسيراته الجانب الأكبر من حياته ـ ومع قصر الفترة التى اهتم فيها بالفقة الحنبلى نراه قد استفاد وأفاد من كان بعده.

وفى علوم اللغة لا يقل إسهامه فيها عن الإسهام فى العلوم الفقهية.. وقد كان ابن هشام موضع تقدير معاصريه من العلماء والمؤرخين لما قدمه فى هذا المجال من جديد بَزَّ به السابقين عليه من النحاة.

لقد قال عنه السبكى: «إنه نحوى هذا العصر»..

ولقبه الصفدى «بشيخ النحاة».. وترجم له ابن مفلح المقدس فقال: «إنَّ ذِكْرَ ابن هشام سارَ فى الآفاق، وانتهت إليه مشيخة النحو فى الدار المصرية، وأنه كان متفرداً فى هذا الفن على وجه التخصيص».

وقال عنه ابن تغرى بردى: «وأما العربية فكان من المشار إليه فيها، والمعمول على كلامه عنها، وهو فارسها، ومالك زمانها، وله فيها التصانيف المفيدة الجيدة».

يصفه ابن حجر بأنه كان فاضلاً، متواضعاً، تقياً، صالحاً، ثم يقول عنه: «إن ابن هشام الأنصارى انفرد دون غيره من أبناء زمانه بالفوائد الدقيقة، والاستدراكات العجيبة، والتحقيقات البالغة، والاطلاعات المفرطة، والاقتدار على التصرف والكلام..».

وذكره السيوطى فقال: «كان أوحد عصره فى تحقيق النحو، وكان صالحاً خيراً ديِّناً..».

وترجع الدكتورة سعاد ماهر تفوق ابن هشام النحوى الأنصارى إلى استفادته من عدد من العلماء والفقهاء فتقول: «لقد درس ابن هشام العربية على «ابن المرحل» الذى كان إماماً فى النحو، مدققاً فيه، عارفاً باللغة وعلم البيان والقراءات.. وعلى الشيخ تاج الدين الفاكهانى الحديث، والفقه، والأصول العربية، والأدب، وسمع من الشيخ شمس الدين بن السراج الذى وصفه ابن

الجزرى بأنه كان ينقل القراءات نقلاً جيداً، وإليه انتهت الرياسة فى تجديد الكتابة (الخط) وإسناد القراءات بالديار المصرية.

كذلك تفقه فى الحديث على يد قاضى القضاة «بدر الدين بن جماعة» الذى كان محدثاً فقيهاً، كما حضر دروس الشيخ تاج الدين التبريزى، الذى يقول عنه الأسنوى: إنه كان مطلعا على غالب الفنون والفقه والنحو والحساب والفرائض».

وعن تحوَّل ابن هشام عن مذهبه الشافعى إلى المذهب الحنبلى تقول الدكتورة سعاد ماهر: إن ابن هشام لم يكن الفقيه الوحيد الذى تنقَّلَ من مذهب إلى آخر، فهناك الشيخ أبو حيان المالكى الذى تحوَّل إلى المذهب الشافعى، فلما سُئل عن السبب فى ذلك أجاب: «بحسب البلدة». وغيره كثير من العلماء والفقهاء، مثل الشيخ ابن مالك المالكى الذى تحوَّل إلى المذهب الشافعى، وابن الدهان البغدادى الذى تفقه على مذهب أبى حنيفة أولا ثم انتقل إلى مذهب الشافعى لما تولى تدريس النحو بالمدرسة النظامية فى بغداد، التى ينص واقفها على أن يكون واجباً على مَنْ يتولى تدريس النحو بها أن يكون شافعياً..».

ولم يقتصر تقدير ابن هشام هذا التقدير العلمى على معاصريه أو على من جاء بعده من العلماء المصريين بمئات السنين، بل إن تقديره امتد ليعرفه قراء ابن خلدون من الأجانب، حيث ذكره فى مقدمته فقال: «ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يُقال له: هشام النحوى الأنصارى. أَنْحَى من سيبويه..».

ويضيف ابن خلدون عند حديثه عن كتاب «مغنى اللبيب» لابن هشام قائلا: «فوقفنا منه على عِلْمٍ جم، يشهد بعلو قدره فى هذه الصناعة، ووفور بضاعته..».

وهكذا كانت شخصية ابن هشام الفقيه النحوى.. شخصية تجمع بين التفقه فى العلوم الدينية إلى جانب التفقه فى العلوم اللغوية، فكان موضع احترام علماء وفقهاء زمانه، وظل كذلك إلى أن توفاه الله فى عام واحد وستين وسبعمائة للهجرة، فيقام له ضريح شأنه شأن الأولياء الصالحين فى مواجهة باب النصر خارج سور القاهرة القديم، يعرف بضريح الإمام الصالح ابن هشام الأنصارى.

* * *